عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾

(سورة الأعراف)

أى أو لم يتبيّن للذين يُستخلفون فى الأرض من بعد إهلاك الذين سبقوهم بما فعلوا من المعاصى والكفر فسار هؤلاء القوم سيرة من سبقهم وعملوا أعمالهم وعصوا ربهم أن لو نشاء فعلنا بهم من العذاب كما فعلنا بمن قبلهم وقوله : ﴿ فهم لا يسمعون ﴾ أى السماع المؤدى إلى الاعتبار والاتعاظ فكأنهم لم يسمعوا .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾

هذا هو المراد فى سرد القصص بالنسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم الذى أوضحه الحق فى موضع آخر من القرآن فقال :

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾

(من الآية ١٢٠ سورة هود)

فإذا ما حدث لك من أمتك وقومك شىء من العناد والإصرار والمكابرة فاعلم أنك لست بدعاً من الرسل ؛ لأن كل رسول قد قابلته هذه الموجة الإلحادية من القوم الذين خاطبهم . وإذا كان كل رسول يأخذ حظه من البلاء بقدر ما فى رسالته من العلو فلابد أن تأخذ أنت ابتلاءات تساوى ابتلاءات الرسل جميعاً .

﴿ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟

﴿ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

والطبع - كما قلنا - هو الختم ؛ لأن قلوبهم ممتلئة بالضلال ؛ لذلك يعلنون التكذيب للرسول . وقد طبع الله على قلوبهم لا قهراً منه ، ولكن لاستبطان الكفر وإخفائه فى قلوبهم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾

وهؤلاء الذين كذبوا الرسل ، وردوا منهج الله الذى أرسله على ألسنة رسله . كانت لهم عهود كثيرة . فما وفوا بعهد منها ، مثال ذلك : العهد الجامع لكل الخلق ، وهو العهد الذى أخذه الله على ذرية آدم من صلبه حين مسح الله على ظهر آدم ، وأخرج ذريته وقال :

﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ﴾

(من الآية ١٧٢ سورة الأعراف)

وقد يقف العقل فى أخذ مثل هذا العهد على الذرية الموجودة فى آدم ؛ لذلك نقول : إذا قال الله فقد صدق عَقِلْنا ذلك أو لم نعقله ، إنك لو نظرت إلى « آحاد البشر » ، أى إلى الأفراد الموجودين ، تجد نفسك وغيرك يجد نفسه نسلاً لآبائكم ، وهذا يدل على أنّ الإنسان وجد من حيوان منوى حى انتقل إلى بويضة حيّة من أمه فنشأ هذا الإنسان . ولو طرأ على الحيوان المنوى موت ، أو طرأ على البويضة موت امتنع الإنسال .

إذن فكل إنسان منا جزء من حياة أبيه ، وأبوه جزء من حياة والده ، ووالده جزء

من حياة أبيه ، وإن سلسلت ذلك فسنصل لآدم ، فكل واحد من ذرية آدم إلى أن تقوم الساعة فيه جزيء حي من آدم . ومادام فيه جزيء حي من آدم فقد شهد الخلق الأول ، ولذلك حين يسألهم الله سؤال التقرير ويقول : ﴿ ألست بربكم ﴾ ؟ فيقولون : ﴿ بلى ﴾ .

وضربنا المثل لنقرب وقلنا إن الذرة الشائعة فى شىء ، تشيع فى أضعاف الشىء ، وسبق أن قلنا : إننا إذا جئنا بمادة ملونة حمراء - مثلاً - فى حجم سنتيمتر مكعب ، ثم أذبناها فى قارورة ، وبذلك يصبح كل جزء فى القارورة فيه جزء من المادة الملونة ، وإن أخذت القارورة وألقيتها فى برميل واسع ، هنا تصير كل قطرة من البرميل فيها جزىء من المادة الحمراء ، وإن أخذت ماء البرميل وألقيته فى البحر فكل ذرة فى البحر الواسع يصير فيها جزيء من المادة الملونة ، وهكذا يقرب من ذهن كل منا أن فى كل إنسان جزيئاً من آدم ، وقد شهد هذا الجزىء العهد الأول . ولقائل أن يسأل : كيف يخاطب الله الذر الذى كان موجوداً فى ظهر آدم ؟ . نقول : كما خاطب الأرض وخاطب السماء ، فهو القائل :

﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) ﴾

(سورة فصلت)

إذن فعدم إدراكنا لكيفية الخطاب بين رب ومربوب ، لا يقدح فى أن هذه المسألة لها أصل ولها وجود .

وهذا بالنسبة للعهد الأول ، وبعده العهد الثانى الذى أخذه الله على رسله ، مصداقاً لقوله الحق :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) ﴾

(سورة آل عمران)

ثم هناك عهود خاصة أنشأتها الأحداث الخاصة ، مثلما يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

(سورة يونس)

إنهم لا يسلمون أنفسهم للعطب ، ولا يغترون بجاههم وبالأسباب التى عندهم لأنها قد امتنعت ، ولذلك لا يغشون أنفسهم بل يلجأون صاغرين إلى الله قائلين :

﴿ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة يونس)

هكذا نرى أنهم أعطوا العهد فى حادثة ، فلما أنجاهم الله أعرضوا ، وفى ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ﴾

(من الآية ١٢ سورة يونس)

إذن فالعهد إما أن يكون عهداً عاماً وإما أن يكون عهداً خاصًا .

والحق يقول : ﴿ وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين ﴾ .

أى أن حال وشأن أكثرهم ظل على الفسق ونقض العهد والخروج عنه ؛ لأن العهد إطار يحكم حركة المختار فيما أعطاه على نفسه من المواثيق ، وهو حر فى أن يفعل أو لا يفعل ، لكنه إذا عاهد أن يفعل أصبح ملزماً ووجب عليه أن ينفذ العهد باختياره ، لأنه إذا قطع العهد على نفسه فعليه أن يحكم حركته فى إطار هذا العهد ، فإن خرج بحركته عن إطار هذا العهد فهذا هو الفسق ، والأصل فى الفسق

أنه خروج الرطبة من القشرة لأن القشرة تصنع سياجاً على الثمرة بحيث لا تُدخل إلى الثمرة شيئاً مفسداً من الخارج ، ويقال:فسقت الرطبة أى خرجت عن قشرتها . كأن ربنا جعل التكليف تغليفاً حماية للإنسان من العطب ، فإذا ما خرج عن الدين مثل خروج الرطبة عن الغطاء والقشرة صار عرضة للتلوث وللميكروبات ، فسمى الله الخارج على منهجه بالفاسق ، لأنه خرج عن الإطار الذى جعله الله له ليحميه من المفاسد ، ومن العطب الذى يقع عليه .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

وبعد أن تكلم الحق عن نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وما دار بينهم وبين أقوامهم ، وكيف أهلك سبحانه المكذبين وأنجى المؤمنين ، أراد أن يأتى بتاريخ رسول من أولى العزم من الرسل ، أى من الذين تعرضوا فى رسالاتهم لأشياء لا يتحملها إلا جَلْد قوى . وأظن أنكم تعلمون أن علاج موسى لليهود أخذ قسطاً وافراً فى القرآن ، بل إن قصة موسى مع قومه هى أطول قصص القرآن ؛ لأن انحرافاتهم ونزواتهم وتمردهم على أنبيائهم كانت كثيرة ، وكان أنبياؤهم كثيرين ، ولذلك فهم يفتخرون بأنهم كثيرو الأنبياء ، وقالوا : نحن أكثر الأمم أنبياء . وقلنا لهم : إن كثرة أنبيائكم تدل على تأصل دائكم ؛ لأن الأطباء لا يكثرون إلا حين يصبح علاج المريض أمراً شاقاً . إذن فكثرة أنبيائكم ، دليل على أن رسولاً واحداً لا يكفيكم ، بل لابد من أنبياء كثيرين .

وقوله الحق : ﴿ ثم بعثنا من بعدهم موسى ﴾ .

وكلمة « بعث » - كما نفهمها - توحى وتشير إلى أنه سبحانه قد أرسل موسى رسولاً إلى فرعون ، واختيرت كلمة « بعث » للرسالات لأن البعث يقتضى أن شيئاً

كان موجوداً ثم انطمر ثم بعثه الحق من جديد ، والإيمان يتمثل فى عهد لفطرة الأول الذى كان من آدم ؛ لأن الله خلقه بيديه خلقاً مباشراً وكلفه تكليفاً مباشراً ، فنقل آدم الصورة للذرية ، وهذه الصورة الأصلية هى التى تضم حقائق الإيمان التى كانت لآدم ، وحين يبعث الله رسولاً جديداً ، فهو لا ينشىء عقيدة جديدة ، بل يحيى ما كان موجوداً وانطمر ، وحين يطم الفساد يبعث الله الرسول ، فكأن الحق سبحانه وتعالى حينما كلف آدم التكليف الأول طلب منه أن ينقل هذا التكليف إلى ذريته ، ولو أن الإنسان أخذ تكاليف الدين كما أخذ مقومات الحياة ممن سبقه لظل الإيمان مسألة رتيبة فى البشر .

إننا نأخذ الأشياء التى أورثها لنا أجدادنا وتنفعنا فى أمور الدنيا نحتفظ بها ونحرص عليها ، فلماذا لم نأخذ الدين منهم ؟ لأن الدين يحجر على حرية الحركة ويضعها فى إطارها الصحيح . والإنسان يريد أن ينفلت من تقييد حرية الحركة ، وحين يقول ربنا مرة إنه : « أرسل » الرسل ، ومرة أخرى إنه قد بعثهم ، فهذا يدل على أنه لم يجىء بشىء جديد ، ولكنه جاء بشىء كان المفروض أن يظل فيكم كما ظلت فيكم الأشياء التى ورثها لكم أسلافكم وتنتفعون بها ؛ مثال ذلك : نحن ننتفع برغيف الخبز وننتفع بخياطة الإبرة فلماذا انتفعنا بهذه الأشياء المادية ونسينا الأشياء المنهجية ؟ لأن الأشياء المادية قد تعين الإنسان على شهواته ، أما قيم الدين فهى تحارب الشهوات .

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة الأعراف)

والآيات ـ كما نعلم ـ جمع آية ، وهى الأمر العجيب الذى يقف العقل عنده مشدوهاً . وتُطلق الآيات ثلاث إطلاقات ؛ فهى تطلق على الآيات القرآنية لأنها عجيبة أسلوبيًّا معبرة عن كل كمال يوجد فى الوجود إلى أن تقوم الساعة ، وكل قارىء لها يأخذ منها على قدر ذهنه وقدر فهمه . والآيات الكونية موجودة فى خلق الأرض والسماء وغير ذلك ، وكذلك تطلق الآيات على المعجزات الدالة على صدق الأنبياء . والبعث يقتضى مبعوثاً وهو موسى ، ويقتضى باعثاً وهو الله ، ومبعوثاً إليهم . وهم قوم فرعون ، ومبعوثاً به وهو المنهج .

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

والآيات التى بعث الله بها موسى هى أدلة صدق النبوة ، وهى أيضاً الكلمات المعبرة عن المنهج ليشاهدها ويسمع لها فرعون وملؤه ، والملأ ـ كما عرفنا من قبل ـ هم القوم الذين يملأون العيون هيبة ، فلا يقال للناس الذين لا يلتفت إليهم أحد إنهم ملأ ، أو هم الأناس الذين يملأون صدور المجالس ، أى الأشراف والسادة . ولماذا حدد الحق هنا أن موسى قد بعث لفرعون وملئه فقط ؟ لأن الباقين من أتباعهم تكون هدايتهم سهلة إن اهتدى الكبار ، والغالب والعادة أن الذى يقف أمام منهج الخير هم المنتفعون بالشر ، وهم القادة أو من حولهم ، ولا يرغبون فى منهج الخير لأنه يصادم أغراضهم ، وأهواءهم ، ولذلك يحاربونه ، أما بقية العامة فهم المغلوبون على أمرهم ، وساعة يرون أن واحداً قد جاء ووقف فى وجه الذين عضوهم بمظالمهم وعضوهم بطغيانهم ، تصبح قلوبهم مع هذا المنقذ !

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة الأعراف)

وإن كانت الآيات هى الكلمات المؤدية للمنهج الموجودة فى التوراة ، أو كانت الآيات هى المعجزات التى تدل على صدق موسى فقد كان ذلك يقتضى إيمانهم . ونعلم أن القرآن قد عدد الآيات المعجزات التى أرسلها الحق مع موسى :

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾

(من الآية ١٠١ سورة الإسراء)

ومن هذه الآيات العصا ، واليد يدخلها فى الجيب أو تحت جناحه وإبطه وتخرج بيضاء من غير سوء أو علة ، وأخذ آل فرعون بالسنين ، وكلمة « سنين » تأتى للجدب الشديد الذى يستمر لفترة من الزمن بحيث يلفت الناس إلى حدثٍ فى زمان ، ولذلك نقول : كانت سنة عصيبة ؛ لأن السنة عضة من الأحداث ، تهدم ترف الحياة ، ثم تأتى لهم بما يهدم مقومات الحياة ، وأولها الطعام والشراب فيصيبهم بنقص الثمرات ، وهو الجدب والقحط ، وسمى الجدب سنة ، وجمعه سنين ، لأنه شىء يؤرخ به ، فماذا كان استقبال فرعون وملئه للآيات التى مع موسى عليه السلام ؟ يقول الحق : ﴿ فظلموا بها ﴾ .

وهل كانت الآيات أداة للظلم أو ظلموا بسببها لأنهم رفضوها كمنهج حياتى ؟ .

نقد ظلموا بها لأنهم رفضوا اتباع المنهج الحق ، وظلوا على فسادهم ، والمفسدون ـ كما نعلم ـ هم الذين يعمدون إلى الصالح فى ذاته فيفسدونه ، برغم أن المطلوب من الإنسان أن يستقبل الوجود استقبال من يرى أن هناك أشياء فوق اختياراته ومراداته ، وأشياء باختياره ومراداته ، فإذا نظر الإنسان فى الأشياء التى بها مقومات الحياة ، مما لايدخل فى اختياره يجدها على منتهى الاستقامة .

إننا نجد الإنسان لا يتحكم فى حركة الشمس أوحركة القمر ، أو النجوم أو الريح أو المطر ، فهذه الكائنات مستقيمة كما يريدها الله ، ولا يأتى الفساد إلا فى الأمر الذى للإنسان مدخل فيه ، والناس لا تشكو من أزمة هواء ـ على سبيل المثال ـ لأنه لا دخل فى حركة الهواء لأحد ، لكنهم شَكَوْا من أزمة طعام لأن للبشر فيه دخلاً ، ونجد شكواهم من أزمة المياه أقل ؛ لأن مدخل الإنسان على الماء قليل .

إنه سبحانه وتعالى يجعل الأمر الذى يدير حركتك الوقودية لك فيه بعض من الدخل ، فيجعل من جسمك ـ على سبيل المثال ـ مخزناً للدهون ليعطيك لحظة الجوع ما كنزته فيه من طاقة . ومن العجيب أن الدهون هذه هى مادة واحدة وساعة نحتاج إلى التغذية منها تتحول المادة الواحدة إلى المواد الأخرى التى نحتاج إليها .

تحتاج مثلا إلى زلال ، فيتحول الدهن إلى زلال ، تحتاج إلى كربون ، يعطى لك الدهن الكربون ، تحتاج إلى فوسفور يعطيك فوسفوراً ، تحتاج إلى مغنسيوم يعطيك الدهن المغنسيوم ، وهكذا فإذا كنا نصبر على الطعام بقدر المخزون فى أجسامنا ، ونصبر على الماء أيضاً بقدر المخزون فى هذه الأجساد ، فنحن لا نصبر على الهواء لأن التنفس شهيق وزفير ، ولو أن إنساناً ملك الهواء يعطيك إياه لحظة الرضا ، ويمنعه عنك لحظة الغضب ، لمت قبل أن يرضى عنك ، لكن إن منع عنك الماءفترة فقد يحن قلب عدوك أو يأتى لك أحد بالماء أو قد تسعى أنت بحيلة ما لتصل إليه .

إذن فالأمر الذى لا دخل للإنسان فيه نجده على منتهى الاستقامة ، ولا يأتى

الفساد إلا من الأمر الذى للإنسان فيه دخل .

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

أى أن آخر الأمر سيعاقب الله المفسدين .

وأراد سبحانه أن يَذْكُر سلسلة القصة لا من بدء سلسلتها ، بل يبدأ من نهايتها ، فسبحانه لا يدرس لنا التاريخ ، ولكن يضع أمامنا العظة ، واللقطة التى يريدها فى هذا السياق ، ولذلك لم يتكلم سبحانه فى هذه السورة عن ميلاد موسى وكيف أوحى لأمه أن تلقيه فى البحر ، ولم ترد حادث ذهابه إلى مدين ومقابلته لسيدنا شعيب ، لكنه هنا يتكلم سبحانه عن مهمة سيدنا موسى مع فرعون .

ويقول سبحانه :

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾

ويشرح لنا القرآن أمر بلاغ موسى لفرعون وقومه بأن الله واحد أحد وهو رب العالمين ، وكان قوم فرعون يعتقدون بوجود إله للسماء وآخر للأرض ، لذلك يبلغهم موسى بأن الإله واحد :

﴿ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

ونجد موسى يعدد كلمة الربوبية فى آيات أخرى ؛ ليأتى بالمظهر الذى دُسَّت فيه دسيسة الربوبية لفرعون ، وكانوا يعتقدون أن للسماء إلهاً ، وللأرض إلهاً آخر ، فقال موسى : إننى أتكلم عن الإله الواحد الذى هو رب السماء والأرض معاً فلا إله إلا الله وحده . وكانوا يعتقدون أن للشرق إلهاً ، وللغرب إلهاً ، فأبلغهم موسى بأنه

إله واحد ، وكانوا يعتقدون أن للأحياء إلهاً ورباً ، وللأموات إلهاً ورباً ، فقال لهم موسى :

﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

ويبلغ هنا موسى فرعونَ وقومَه :

﴿ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾

(من الآية ١٠٤ سورة الأعراف)

وما دام موسى رسولا من رب العالمين ، فهو لا يقول إلا الحق ، لذلك يتابع الحق على لسان موسى :

﴿ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

فأى هذه الأمور هو الذى يحتاج إلى بينة ، هل البلاغ بأنه رسول من رب العالمين ؟ إن هذا القول يدلنا على أن موسى اختلف مع فرعون أولاً فى أن موسى رسول ، وأن للعالمين ربًا واحداً ، وأنه لا يبلغ إلا بالحق ، هذه - إذن - ثلاث قضايا خلافية بين موسى وفرعون . ولكن فرعون لم يختلف مع موسى إلا فى قضية واحدة هى : هل هو رسول مبلغ عن الله بالقول الحق ؟ فماذا طلب منه ؟ طلب الدليل على أنه رسول من رب العالمين . وهذا يوضح أن فرعون يعلم أن العالم له رب أعلى .

كذلك فإن فرعون لم يقف مع موسى فى مسألة أن للعالمين ربًا ، وأن هذا الرب

لا يستطيع كل إنسان أن يفهم مراده منه فلابد أن يرسل رسولاً ، بل وقف فرعون فى مسألة : هل موسى رسول مبلغ عن الله أو لا ؟

ولذلك يقول موسى :

﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾﴾

(سورة الأعراف)

كان مهمة موسى عند فرعون أن يخلص بنى إسرائيل . ونعرف أن قصة بنى إسرائيل ناشئة من أيام نبى الله يعقوب وابنه يوسف حين كاد الإخوة لأخيهم يوسف ، وتشاوروا فى أمر قتله أو طرحه أرضاً أو إلقائه فى غيابة الجب ، لقد جاء الحق بقصة بنى إسرائيل على مراحل لنتدرج بالانفعال معها . فمراحل الانفعال النفسى أمام من تكره تأخذ صورتين اثنتين : صورة تدل على تصعيد الرحمة فى قلبك ، وصورة تدل على تصعيد الشر فى قلبك ، مثال ذلك : لنفترض أن لك خصماً وصنع فيك مكيدة ، وتحكى أنت لإخوانك ما فعله هذا الخصم ، وكيف أنك تريد الانتقام منه فتقول : أريد أن انتقم منه بضربه صفعتين ، ثم تصعد الشر فتقول : أنا أريد أن أقتله بالرصاص ، هذا شأن الشرير ، أما الخيِّر فيقول : أنا لا أريد أن أقتله أو أصفعه أو أشتمه وأسبّه فهذا تصعيد فى الخير . إذن . يختلف تصعيد الانتقام أو السماح حسب طاقة الخير أو الشر التى فى النفس . وهكذا نجد إخوة يوسف وهم يكيدون له ، فقالوا :

﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾

(من الآية ٨ سورة يوسف)

هم يعترفون أنهم قوة وعصبة ، ويحسدون يوسف وأخاه على محبة الأب لهما ، ويعترضون على ذلك ، ويظهرون البينة على أن يوسف وأخاه أحب إلى الأب منهم ، وذكر القرآن هذه البينة لنعرف أهميتها ، حتى لا يغفل أحد عنها . لقد كان قلب نبى الله يعقوب مع يوسف وأخيه لصغرهما وضعفهما ، بينما بقية أبنائه كبار أقوياء أشداء ؛ لأن الله سبحانه وتعالى وضع فى قلب الأبوة والأمومة من الرحمة على قدر ضعف الوليد الصغير . فالصغير هو من يحتاج إلى رعاية وعناية ، ويكون

قلب الأم والأب مع الابن المريض أو الغائب . ولذلك حينما سئلت امرأة حكيمة : من أحب بنيك إليك ؟ قالت : الصغير حتى يكبر ، والغائب حتى يعود ، والمريض حتى يشفى .

إذن فقول إخوة يوسف : ﴿ ونحن عصبة ﴾ . هو بينة ضدهم . وكان المنطق يقتضى أن يعرفوا أنهم ماداموا عصبة فلابد أن يكون قلب أبيهم مع يوسف وأخيه فكلاهما كان صغيراً ويحتاج إلى رعاية ، وبطبيعة تكوين أبناء يعقوب كأسباط وذريّة أنبياء ، نجدهم يصعدون الخير لا الشر ، فقد بدأوا بإعلان رغبة القتل ، ثم استبدلوا بها الطرح أرضاً بأن يلقوه فى أرض بعيدة نائية ليستريحوا منه ويخلو لهم وجه أبيهم ، ثم استبدلوا بها إلقاءه فى غياهب الجب ؛ بدأوا بالقتل فى لحظة عنفوان الغضب ثم تنازلوا عن القتل بالطرح أرضاً ، أى أن يتركوه فى مكان يكون فيه عرضة لأن يضل ، ثم تنازلوا عن ذلك واكتفوا بإلقائه فى غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة ، فهل كانوا يريدون أن يضروه ، أو كانوا يفكرون فى نجاته ؟ . إذن فهذا تصعيد للخير .

وتوالت الأحداث مع سيدنا يوسف واستقر معه بنو إسرائيل فى مصر وكثرت أعدادهم . وعندما نستقرىء التاريخ ، نجد أن الحق سبحانه وتعالى حينما تكلم عن ملوك مصر ، خص بعضهم باسم فرعون ، وخص بعضهم باسم ملك ، فهناك فرعون وهناك ملك .

فإذا ما نظرت إلى القديم نجد أن الحق يقول :

﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة الفجر)

هكذا نجد الحق يسمى حاكم مصر « فرعون » وفى أيام سيدنا موسى أيضاً يسميه الحق فرعون . لكن فى أيام يوسف عليه السلام لم يسمه فرعون ، بل سمّاه ملكاً :

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ﴾

(من الآية ٥٠ سورة يوسف)

وبعد أن اكتشف العالم الفرنسى شامبليون ـ حجر رشيد ـ عرفنا أن الفترة التى دخل فيها سيدنا يوسف مصر ، لم يكن الفراعنة هم الذين يحكمون مصر ، بل كان الحكام هم ملوك الهكسوس الرعاة ، وطمر القرآن هذه الحقيقة التاريخية حين سمى حكام مصر قبل يوسف فراعين ، وفى الفترة التى جاء فيها سيدنا يوسف سماهم « الملوك » ، وهؤلاء هم من أغاروا على مصر وحكموها وساعدهم بنو إسرائيل وخدموهم ، وقاموا على مصالحهم ، وبعد أن طرد المصريون الهكسوس التفت الفراعنة بالشر إلى من أعان الهكسوس ؛ فبدأوا فى استذلال بنى إسرائيل لمساعدتهم الهكسوس إبان حكمهم مصر . وأراد الله أن يخلصهم بواسطة موسى عليه السلام ، ولذلك يقول الحق على لسان موسى :

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

كأن موسى يريد أن يخلص بنى إسرائيل ، أما مسألة الألوهية وربوبية فرعون فقد جاءت عرضا .

ويقول فرعون :

﴿ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾

وهكذا يواجه فرعون موسى سائلاً إياه أن يُظهر الآية إن كان من الصادقين ، إذن ففرعون يعتقد أن لله آيات تثبت صدق الرسول بدليل أنه قال له : هاتها إن كنت من الصادقين .

ويكشف موسى عليه السلام الآية :

﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ ﴾

وهذا الإلقاء كان له سابق تجربة أخرى حينما خرج مع أهله من مدين ورأى ناراً وبعد ذلك قال لأهله :

﴿ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا ﴾

(من الآية ١٠ سورة طه)

ثم سمع خطاباً :

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة طه)

وحين يقال له : ﴿ وما تلك بيمينك ياموسى ﴾ ، كان يكفى أن يقول فى الجواب : عصاى ، ولا داعى أن يقول : « هى » ولا داعى أن يشرح ويقول : إنه يتوكأ عليها وأن له فيها مآرب أخرى ؛ لأن الحق لم يسأله ماذا تفعل بعصاك ، إذن فجواب موسى قد جاوز فى الخطاب قدر المطلوب ، ويظن البعض أنه كان من الواجب أن يعطى الجواب على قدر السؤال . لكن من يقول ذلك ينسى أنه لا يوجد من يزهد فى الأنس بخطاب الله . وحين قال موسى عليه السلام :

﴿ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى ﴾

(من الآية ١٨ سورة طه)

ولقد شعر موسى عليه السلام واستدرك هيبة المخاطب فكان تهافته على الخطاب حبًّا لأنسه فى الله ، لكنه حين شعر أنه قارب أن يتجاوز قال : ﴿ ولى فيها مآرب أخرى ﴾ كان من الممكن أن يقول استعمالات كثيرة للعصا . إذن فللعصا أكثر من إلقاء ، إلقاء الدربة والتمرين على لقاء فرعون حين أمره الحق :

﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة طه)